النازحون السوريون يعيشون في مجتمع بدائي

كتبت مها الرفاعي

يتوزع النازحون السوريون على مختلف المدن والبلدات اللبنانية، ولعلّ الاسوأ حالا منهم اولئك القابعون في منطقة تربل البقاعية حيث ان الوصول اليهم يتطلب معاناة بسبب ابتعادهم عن الطريق العام والحفرالتي ترحب بالزوار طوال السير.

«الطريق الى العرب من هنا»، هي اجابة العجوز الراكن في ارضه عندما سألناه عن مكان النازحين السوريين. كلمة «العرب» كانت مدعاة للاستغراب والتساؤل لكن عند وصولنا اليهم ادركنا الهدف من استخدام هذه العبارة.

خيمٌ منصوبة مسندة بالعصي والحجارة، الثياب معلقة على اشرطة الدوالي، والنساء يجتمعن حول «الماعون» لاعداد الطعام بالكمية الكبيرة بغية اشباع عددهم الكبير. هو مشهد يوهم الزائر بأنه قادم الى المجتمع العربي القديم.

سباق للافصاح عن همومهم

ابتسامة النازحين رافقتهم مع استقبالنا، وبمجرد معرفتهم اننا من الجسم الصحافي تسابقوا الى الكلام عن معاناتهم ودون طرح اي سؤال وجدنا الاجوبة التي نبحث عنها.

اكثر من ٢٠ شخصاً يتواجدون في الخيمة الواحدة الضيّقة. حرارة الشمس المرتفعة نهارا دفعتهم الى وضع آلة تبريد صغيرة في الزاوية. يجلسون معا ليتبادلون الاحاديث عن اوضاع مناطقهم السورية من بابا عمرو في حمص ودوما ودرعا وحلب وغيرها...

وربما الرحمة الالهية كانت الى جانبهم مع وجود بركة للمياه في جوارهم. والمساعدة الوحيدة التي يتلقونها رغم تردد العديد من الجمعيات الخيرية اليهم هي الملجأ للاستحمام والغسيل والشراب والطهي والتنظيف. الا انّ مشاهدتها من بعيد تكشف عدم صلاحيتها خصوصاً لدخولها الى جسم الانسان. امّا عملية تأمين اغراض الطعام فاحيانا تكون من المزروعات المحيطة بهم واحيانا اخرى يضطر النازحون الى السير مدّة ٤٠ دقيقة للوصول الى سوق الخضار وشراء ما يسد جوعهم بثمن قليل. فشاب ال ١٦ سنة وجد عملا كمزارع براتب ٣٠٠ الف ليرة لبنانية شهريا ليصرف على ١٣ شخصا من افراد عائلته.

مكان الاستحمام هو نفسه للنوم والطهي. يسدلون القماش ويختبئون خلفه لتنظيف اجسادهم، امّا قضاء الحاجة فيكون في الفلاء خلف الاشجار، والمحزن المضحكي معاناة النساء في قضاء الحاجة خلال الليل حيث ان الخروج الى العراء في وقت متأخر امر مخيف.

فاطمة والعودة الى المدرسة

تنقلنا من مكان الى اخر، وفي كل مرّة كنّا نشاهد طوابير الناس وراءنا تتهافت لتسجيل اسمائها بغية الحصول على المساعدات، حتّى الحجة الهرمة التي لا تسعفها اقدامها على النهوض من مكانها لحقت بنا الى الخارج وتحدثت عن معاناتها مع الامراض المزمنة: فهي لا دواء لديها ولا حتى المال لشرائه اذا ما وُجد طبيب وصف لها العلاج.

فاطمة ابنة العشر سنوات، قضت عيد الفطر السعيد بثياب بالية، غير متناسقة، اظافر غير مقلّمة، شعر غير مصفف واجياب فارغة من اي «عيديّة» سوى الف ليرة لبنانية تلقتها من والديها لشراء قطعة حلوى وبوظة بعد صيامها طيلة شهر رمضان. مع كلّ هذا تبقى امنيتها الوحيدة العودة الى وطنها ومنزلها وغرفتها المليئة بالالعاب، امّا المدرسة التي لم تحبها يوما، فاليوم تتمنى العودة الى مقاعد التعلم فيها كما هي امنية رفاقها في السكن. ولكن اوضاع اهاليهم المادية تحول دون ادخالهم الى المدارس، فالشتاء سيقضونه في احضان اهلهم. يتحمّل النازحون هذا الوضع رغم مساوئه، ولكن ماذا سيفعل هؤلاء عندما يحلّ فصل الشتاء بقساوته وعواصفه؟ واذا كانت بيوت حارة حريك غرقت السنة الماضية من الامطار الغزيرة فكيف خيم النازحين في السهول البقاعية التي تحمل شتاء اشد من المناطق الساحلية؟؟

ومن اللافت للذكر، الامراض التي رصدناها في وجوه واجسام الاطفال الذين لم يجدوا طبيبا يرأف بحالتهم الانسانية ويعاينهم؛ حتى لو ذهبوا اليه فأجرة الكشف عنهم لا تعرف الرحمة ولا الفقر.

وما يزيد الطين بلّة في وضعهم هي اوراقهم التي تعرّفهم باسم «النازحون»؛ فالبعض شارفت مدة اوراقهم على الانتهاء والبعض الاخر يتوجب عليه تجديدها منذ فترة. ولكن الخوف من ردّهم الى الاراضي السورية من قِبل الامن العام اللبناني يعيق اقدامهم لتجديد اوراقهم.

وما ان يلقي الليل ظلاله حتى يعيش هؤلاء نوعاً اخراً من المعاناة: فلا فراش يكفي عددهم ولا غطاء يحميهم من شرّ البرد في سهول البقاع ونتائجه السلبية على صحة الانسان. ويكتفون بافتراش الحصائر والحصول على الدفء من بعضهم البعض.

باختصار، النازحون السوريون في تربل يعيشون في مجتمع بدائي لحقه بعض التطور في عصر الحداثة.